ديوان العرب تقدم لكم:

دموع الشطرنج

رواية

فاتحة درابني

2011

نظرت فاطمة من وراء النافدة بعينين رقراقتين فيهما من الشجن العميق ما يحاكي الشتاء، فأخذت تنظر إلى الشارع، إلى البنايات البسيطة، إلى الأطفال الصغار وهم يلعبون ويمرحون ويعبثون تحت قطرات المطر المتناثرة، لتسافر بفكرها بعيدا، عائدة إلى أيام الطفولة، حيث تتذكر بيتهم القديم المطلي بالجير الأبيض وكيف كانت تنقش على جدرانه لوحاتها المركبة بالفحم الأسود، وهي ترسم ورودا وأشجارا وشمسا وطيورا، تتذكر كيف كانت تتطلع إلى حياة بحسها الطفو لي المرهف البريء، لكن تلك الأيام رحلت ولن تعود، رحلت كما ترحل سنين العمر، كما ترحل الطيور عن أعشاشها، رحلت ولم يعد لها وجود إلا في خيالها فقط .

كانت فاطمة فتاة بسيطة في العشرين ربيعا، مشدودة القامة، جميلة الملامح، لها عينين سودوا تين غامضتين وحزينتين، وكأنهما تختزنان بعضا من الشجن، وبعضا من القسوة، وبعضا من الألم بحيث لم تستطيع رغم ابتسامتها البريئة أن تخفي شيء من تلك التعبيرات، كانت تنظر إلى الأمطار وكأن بينهما حديثا، تنظر إليها وتحاكيها كما لو أنها تعبر عنها وتنشد قصتها في العمق، فاشتد عليها البكاء فارتمت فوق السرير وهي تنوح في صمت.

انهمرت الأمطار بشدة، وأنشدت الريح صفيرا رقيقا أشبه بالأغنية الشجية التي يترنم بها صاحب الناي في خلواته، ثم بدأ صوتها يرتفع ويشتد مع ومض البرق وصوت الرعد، لتندفع النافدة بقوة محدثة صوتا عاليا، فاخترقت قطرات المطر إلى الغرفة، وفاطمة غارقة في بكاءها، اتجه محمد إلى الباب وفتحه في هدوء، ثم نظر إلى فاطمة التي سارعت إلى إخفاء دموعها خلف ابتسامة زائفة، فأغلق النافدة دون أن ينبس ببنت شفة وخرج بعدما أغلق الباب وراءه، تسمرت فاطمة في مكانها ومسحت دموعها لتقوم إلى غرفة ملابسها بعدما وضعت الحقيبة فوق السرير، فأخذت كل شيء يخصها وأمسكت جواز السفر بيدها وهي تقول:

- كيف سأعود؟ ولمن سأعود؟ لكن لن أظل هنا، حملت حقيبتها وخرجت وقد أضمرت في نفسها أمرا ما، انتبه محمد على صوت الباب وهو يغلق دون أن يلتفت أو يحرك ساكنا، لكنه لم يتوقع رحيل فاطمة لأن جل تفكيره كان مرتكزا في تلك الرسالة التي لم يستطيع أن ينسى كلماتها، لا يستطيع أن ينسى حديثها وهي تقول:

- لماذا تسأل وماذا تريد أن تعرف؟ أنا تزوجتك غصبا، يكفي أن تعرف أن أهلي اعتبروك مشروعا رابحا لا أكثر، أنا لست إلا ضحيتك وضحية الأهل، لقد حرمت من أقل حقوقي، لقد حرمت من أن أختار رفيق حياتي، ترى حياتي الآن منهارة، لم يعد يهم ماذا سيحدث بعد الآن، ولا يهم كيف وصلت تلك الرسالة إليك، ثم بدأت تصرخ وتبكي أتركني، فلم ينتبه إلا على صوت النافدة وهي تفتح من جديد، فأخذ ينادي فاطمة دون أن يلقى جواب، فقام من مكانه متجها إلى الغرفة، فإذا هي فارغة من كل شيء حتى من فاطمة، وإذا بورقة صغيرة قد جرفها الهواء خارجا فانحنى إليها وفتحها فما إن قراءها حتى وقف مذهولا وهو يقول: «فاطمة»، فأعاد قراءتها وكأنه لم يصدق مضمونها:

- إني ذاهبة دون عودة، لا أستطيع العيش معك ولا العيش من دونك، لا نستطيع الحياة معا، ولا نقدر عليها، الغلطة لم تكن غلطتي ولا غلطتك لكنني سأتركك لأني لا أحبك، ولن تحبني، لم يعد هناك أمل في زوجنا، إنني عائدة من حيث أتيت، لقد قطعت تذكرة العودة، لست أدري كيف سأعود، كيف سأعيش، لكنني لا أستطيع العيش هنا بمفردي، سأكون دوما في الحاجة إليك وأنا لا أريد أن أحتاج إلى أي إنسان.

تحياتي.

اشتدت الأمطار بشدة، وأظلمت الأجواء، كانت الساعة تشير إلى الرابعة، خرج محمد من المطار مقطب الحاجبين، شجي النظرات، بعدما أيقن أن فاطمة لم تسافر كما قالت في الرسالة، فأين ذهبت؟ إنها لا تعرف أحد في طراكونة وليس لها أصدقاء، فأين ستكون يا ترى؟ فأخذ يمشي تحت المطر

وهو يبحث عنها كالمجنون في كل مكان حتى اشتد به التعب، فجلس في مكان منعزل من مكان الاحتفال، ليمر بذاكراته طيف فاطمة وهي تقول:

«وكنت أمشي إلى البحر، أدفن حزني في حيرته، فتحدثني الأمواج بقصصي وكأنها تعرفها، فكنت أحيانا أبكي، كنت أتمنى لو أن تلك الأمواج تمتد إلي وتضمني إليها، فأموت على صوت خريرها طالما لا أملك قوة الحياة، لكنني كنت موقنة أنها لن تقترب منى لتصافحني، لأنها تحس في عمقها بضعفي وهي تترنم دائما بالقوى وتمتد عاليا فتصعد لتنكسر على الرمال، فكان ذلك الانكسار في قلبي، فيا ليتني مثل تلك الموجة في قوتها وانكسارها».

فتذكر البحر، وكأنه عرف أين سيجدها، على رغم من أنه لم يمضى معها إلى شهور قليلة، فانه أصبح يفهمها، ويعرفها، ربما أحيانا يتخيل إليه أنه بدأ يحبها وأنها توأم حياته.

الموج والمطر عندما يلتقيان، وينشدان مع البرد قصائد الشدو والشجن، فيحملان تعبيرات كثيرة، وتأويلات جمة، هناك بين الرمال والبحر، كانت تجلس فاطمة وقد استظلت بمظلة سوداء، وهي تبكي بشدة حتى اختلطت الدموع بالأمطار، واختلط في قلبها الحزن بالألم، وقد وجدت نفسها عاجزة عن العودة إلى حياتها الأولى، ربما وجودها في طراكونة أهون بكثير من العودة إلى بوابة الفقر، فبدأت تمر بها الذكريات القديمة، لتتذكر وسادتها المبللة بالدموع، فانساب الألم، مع العبرات، مع الذكريات، مع الأمطار، فنظر إليها محمد متلهفا، وكأنه يريد أن يحتضنها متأسفا، لكن كبريائه كان يمنعه، فأسرع إليها وأمسك بيدها وهو يقول:

- ما كان عليك أن ترحلي، انكي في بيتك ولا تنسي أنك زوجتي .
فنظرت إليه وهي تبكي

لا أريد، حياتي محطمة، إنني يائسة من كل شيء، كيف تظنني أستطيع أن أعيش، إنني مثل هذه الرمال تلعب بها الأمواج والمطر...

بإمكانك البقاء، يمكننا التفكير لا حقا، وجودك أو غيابك لن يغير من الحقيقة شيء.

فأمسك بيديها وسحبها إليه ثم حمل الحقيبة لينصرفا معا إلى منزلهما ، فلم يستطيع أحد أن يفطن إلى ما بينهما، كل من كان يراهما يظن أنهما اثنان سعيدان يمشيان في الطريق تحت الأمطار كأنهما عصفوران محلقان في سماء الشتاء.

مرض محمد مرضا شديدا ألزمه الفراش، فأشرف الدكتور عادل على علاجه وهو صديق قديم له من أيام الجامعة، وقامت فاطمة بتمريضه خير قيام، وبعد مضي عدة أيام تماثل للشفاء في حين كان التعب والإرهاق باديين على وجه فاطمة التي قالت لمحمد وهي تحاول إخفاء دمعة انحدرت على خدها:
- الحمد لله على سلامتك، ما كنت لأسامح نفسي لو حدث لك مكروه الحمد لله.
- لقد أرهقتي نفسك طيلة هذه الأيام في رعايتي.
- لا يا محمد، ليس هناك من تعب، ما فعلته كان أقل من الواجب.
- يبدو عليك الإرهاق، لقد سهرت الليالي طوال من أجلي.
- الحمد لله أن عادت إليك صحتك، أظنني في تحسن ما دمت بخير.
- أستطيع الذهاب إلى العمل غدا وأنا مطمئن انك لن تعودي إلى تلك الأفكار، أنا لن أجبرك على شيء، ولا أحبذ فكرة رحيلك، البيت بيتك ويمكنك أن تعتبريني بمثابة ضيف عندك.
- أشكرك يا محمد، لكن قبل أن تفكر في الذهاب إلى العمل سأستدعي الطبيب ليكشف عليك لأتأكد من رحيل الحمى تماما من جسمك.
- إنني بصحة جيدة الآن ولو كان هناك شخص في حاجة إلى الدكتور فهو أنت، أنظري إلى وجهك في المرآة، أنظري إلى شحوب لونك.

- إنني لا أشعر بشيء، أنا بخير قليل من الإرهاق فقط.
- يحق لي أن أطمئن عليك.
- إنني مطمئنة على نفسي والحمد لله.

انصرفت فاطمة وتركت محمد يفكر في سهرها الليالي على مرضه، وكأنه تقول أنا لست سيئة، أنا إنسانة بقلب ومشاعر .

قام محمد من مكانه على طرق الباب، ففتحته، فإذا بزمرة من أصحابه قد حضروا ليطمئنوا عليه بعدما علموا بمرضه وهم يحملون باقات الورد وعلب الشكولاتة، فاستقبلتهم فاطمة بوجه مبتسم، بعدما أثنت عليهم بكلمات الترحيب، لتنصرف إلى المطبخ وتبدأ بإعداد كؤوس الشاي، وترتيب قطع الحلوى في حين جلس محمد وأصحابه يضحكون ويتحدثون، فأخذ فؤاد زمام الحديث معبرا عن فائدته الكبيرة من غياب محمد عن سهراتهم، وأنه أصبح الفائز الأكبر في اللعبة حتى مل من الفوز وأخذه الحنين إلى أيام الخسارة.
فقال عبد الله:
اللعب بدونك يا محمد بلا قيمة، لقد افتقدناك كثيرا.
فضحك محمد وقال:أنا ما أزال حيا، ما تزال الأيام بيننا طويلة ثم نظر إلى فؤاد مبتسما وهو يقول: ما رأيك أن نبدأ اللعبة الآن وأريني سنيور فؤاد كيف ستفوز .
فضحك فؤاد وقال:
- نحن الآن بصدد زيارة أخ عزيز، أتركها لمرة أخرى، ثم غمزه بأحد عينه وقال:
- الحقيقة أنني غير مستعد اليوم للخسارة...ها ها ها.

دخلت فاطمة بأكواب الشاي، وقطع الحلوى، فنظر إليها ضاحكا ثم قال مشيرا بيده:
- زوجتي فاطمة، فتسلم أكواب الشاي منها وهو يقول هؤلاء أصدقائي وأعتبرهم عائلتي في المهجر وهم عبد الله، رشيد، عادل وفؤاد وزوجته.

جلست فاطمة مبتسمة وهي تقول:مرحبا تشرفت بمعرفتهم، لو بيدي لفرشت لكم الأرض زهورا واستقبلتكم بالتمر والحليب حتى لا تنقطع زيارتكم عنا.

استأنف أحمد وأصدقاؤه الحديث عن العمل، الغربة، العائلة لينتهي عند لعبة الشطرنج من جديد.
انتبهت فاطمة عندما سمعت تلك الكلمة ونظرت إلى محمد الذي قال:
- لقد اشتقت كثيرا للعب معكم والحديث الجميل، اشتقت إلى تلك السهرات التي تذكرني بأيامي الأولى في اسبانيا، حيث كنا نسهر لساعات وساعات ونحن نلعب ونتبادل أطراف الحديث ....

فابتسمت فاطمة وقالت :

الشطرنج لعبة فكرية مفيدة، لكنني لم أكن أعلم أنها لعبة المغاربة المفضلة في اسبانيا.
- ليس كل المغاربة يا فاطمة، لقد كانت بدايتنا مع لعبة الشطرنج غريبة شيء ما، أنا تعلمتها من صديق لي ألماني في سنواتي الأولى من الهجرة، فأعجبت بها ووجدت بعض من المهاجرين يلعبونها في سهراتهم الأسبوعية، فانضممت إليهم، ثم انضم إلينا فؤاد وهكذا حتى أصبحنا زمرة .
استمر محمد في الحديث عن مغامرته مع الشطرنج حتى العشاء.

أقبل الليل بظلمته الحالكة، وقد أوت الطيور إلى أعشاشها، بدأت النجوم تظهر رويدا رويدا كأنها لؤلؤ من الماس المنثور فوق حرير أسواد، بزغ القمر ليرسل أشعته الفضية التي بدت وكأنها تلتهم ظلام الليل الحزين ووحشته، وفاطمة بجانب النافدة تنظر إلى الليل، إلى النجوم، إلى القمر، شاردة الفكر، تنظر إلى مساحة السواد في السماء، فتتذكر مساحة الحزن في قلبها، لكنها لا تجد في عمقها نجوما ولا قمرا، كل ما تحسه شمعة تحترق

بداخلها لتضيء قليلا من العالم حولها، شمعة توشك أن تنطفئ وتغرق في ظلمة الليل البهيم، فالكون موحش من حولها، والنجوم خافتة، والدموع لا تفارق مآقيها.

أحست بدوار يميل برأسها، وبظلام يغشى عليها، لم تعد تشعر بشيء، غاب العالم والدموع، والذكريات، غاب كل شيء من حولها، وكأنها انتقلت إلى فضاء آخر، فلم تستفيق إلا وهي على السرير ومحمد واقف بجانبها ومعه الدكتور، فتطلعت إلى الدكتور بعينين ذابلتين ملأتهما نضرات حيرة وفزع وقلق.

فقال الدكتور:
- الحمد لله على سلامتك، لقد مر عليك وقت طويل وأنت غائبة عن الوعي، لكن لا تقلقي، هذا من الإرهاق والحمل، يجب أن ترتاحي...، أن تهتمي بصحتك أكثر .

نظرت فاطمة إلى محمد الذي وقع عليه الخبر كالصاعقة وقد تغيرت ملامحه، فحاولت الكلام لكنها شعرت بالضعف يسري في أطرفها.
فاستطرد الدكتور قائلا:
- لا تقلقي، فقط ارتاحي والتزمي بالدواء. ناد الطبيب على محمد وخرجا معا وقد انفرد به قائلا :
- أنصحك بعمل مجموعة من التحاليل لزوجتك، أظن أن قلبها ضعيف لا يحتمل الحمل ألم يسبق لها أن أجرت فحوصا للقلب؟
- لست أدري فنحن متزوجان منذ فترة قصيرة، كل ما أعلمه أنها كانت تعاني من التهاب اللوزتين لمدة طويلة أجرت على إثرهم عملية جراحية.
- سأعطيك رقم هاتف صديق لي وهو اختصاصي في القلب، سأتحدث إليه بخصوص حالة زوجتك .
أغمضت فاطمة عينيها واستسلمت لنوم عميق شعرت خلاله بأنها في مكان بعيد وجميل مليء بالزهور والأشجار، فهمت تقطف مجموعة من الباقات الجميلة لتجد نفسها فجأة في أرض قاحلة بلا أشجار بلا زهور.

وتمتمت بصوت ضعيف وهامس:
- محمد الزهور....

فحاولت الإمساك بيد محمد، لكنه انفلت منها فتساقطت دموعها بغزارة، فبدأت تمشي في تلك الحديقة الجرداء القاحلة وهي تبكي حتى استفاقت فإذا محمد بجانبها وهو ممسك بيدها:
- لقد كنت تناديني باسمي في الحلم.
فنظرت إليه وقالت:
- أصحيح ما قال الدكتور؟ أصحيح أنا حامل؟ لقد رأيت كيف تغير لونك، انك لا تريد الولد....
- أنا لم أقل ذلك، لكن لا أرى داعيا لوجود طفل بين اثنان قصتهما منتهية.

فنظرت إليه معاتبة وهي تردد في نفسها منتهية، وماذا يا ترى ستكون، لكنني رغم كل الظروف أريد هذا الطفل، ربما يكون هو الأمل الوحيد الذي يربطني بالحياة، كتمت فاطمة رغبتها على محمد مصرة في داخلها على إبقائه مهما كانت الأحوال.

نامت فاطمة نوما عميقا في حين ظل محمد مستيقظا ينظر إليها ويفكر في أمر الجنين والرسالة، يفكر في تلك الكلمات التي تقول فيها :

" ...لا يهم ما سأكون من بعدك، لا يهم أي شيء، إن اسمك محفور في قلبي وذاكراتي وعقلي، إني أقولها لك، إني أحبك، مهما طالت المسافة ووقفت الأحداث بيننا سنبقى روحا واحدة، أنا لا أستطيع أن أنسى حبات الثلج التي تناثرت فوق رؤوسنا ونحن نركض معا كالأطفال، كنت الشيء الوحيد الرائع والجميل في حياتي، كنت القمر الذي أنار كل ظلماتي، كنت النجم الذي يشع في فكري دوما، كنت أمل حياتي انك السعادة التي أبحث عنها ..."

ثم تذكر ذلك الغروب الذي تتحدث عنه في مذكراتها:

»... لم تكن الشمس تتوارى للغروب، بدت وكأنها شجية في مضجعها تكاد تبكي من ازدحام الغيوم المحيطة بها، تكاد تتساقط على صدري فتثقل فؤادي بدموعها، بدا قلبي وكأنه سيتوقف، سيموت، كأن كل شيء في العالم سيتوقف .

انه يوم الوداع، يوم لم أستطيع أن أنساه، تمنيت أن يظل قريب منى أن يظل معي مدى الحياة، أحببته فلم أستطيع أن أقاوم، أن اقتل ذلك الحلم الماسي الذي طالما حلمت به، لم أستطيع أن أمنعه من السفر، أن أمنعه من خوض غمار البحر كنت أشعر وكأن قلبي راحل معه، بكيت وأنا أودعه، بكيت كثيرا...، لم أعرف سر تلك الدموع المنهمرة من عيني، كانت كصبيب النهر المتدفق، بدا قلبي يخفق خفقان الشلال المنحدر، يخفق بعنف، أحسست أنه سيتوقف...،

انه يوم الوداع...، ودعته بدموعي، تمنيت لو يتراجع عن قراره ولا يرحل عني لكن هيهات أن تتراجع الشمس عن الغروب.

أحسست أن العالم يغرب من حولي، و أن قلبي يقتلع من مكانه، آه لقد رحل انه الآن بعيدا جدا.

كنت أمضي ساعات وأنا أتأمل في صورته، أنظر إلى عينيه أو ليست العين أقصر طريق إلى القلب، فأغرق في الذكرى وأنا أتذكر كلماته، أتذكر كل الأشياء الجميلة، أحس بشيء من السعادة تغمرني، سعادة كاذبة لكنها تحملني إلى حيث هو لأعيش في أحلامه، تمنيت أن أكون راقدة في عينيه ، عائشة في فكره، أدرك جيدا مسافة البعد التي بيننا، أدرك مرارة الفراق، فحبنا كان عاصفا كان متمردا على كل شيء كان مجنونا بل كان فوق كل ذلك جنونا ...

نعم ارتديت الفستان الأبيض، ذلك الفستان الذي تحلم به كل فتاة وطالما حلمت به، طالما حلمت وهو يلامس جسدي وأنا أمسك بيدي الزهور الملونة وكأنني ملكة متوجة، لكنني الآن أحسه ضيقا على صدري، أحس بذاك البياض يخنقني وسط دموعي التي تنساب بلا تدفق.

تحدثت إلي يوم زفافي لأخبره بذاك الخبر، أحسست بعمق الصدمة على قلبه أحسست بصوته الذي كاد يجهش بالأنواء، كتمت دموعي وأنا أساله ماذا سأفعل بصورته إنني لا أستطيع الاحتفاظ بها و لا أستطيع أن أمزقها ولا حتى أن أحرقها، إنها جزء من قلبي وحياتي، فأشار علي بأن أبعث بها على عنوان أسرته، فبعث بها وأنا أقطع جزء مني و أتزوج بإنسان آخر، فاقترن معه بدموعي وحيرتي، أهكذا ينتهي كل شيء أ هكذا تنتهي قصص الحب الحقيقية لست أدري، لكن الشيء الوحيد الذي أدركه ذلك الانكسار العميق في قلبي، كنت أشعر بنزيفه، بخفقانه، أشعر بقلبه المحطم، أستطيع أن أحس به الآن وهو غارق في سكره لينسى، غارق وحزين دون أن يتكلم، أحسه الآن وهو محطم ويحطم كل شيء.

إنني أحس بك الآن بعيدا جدا، أحس بذاك الألم الذي يحفر قلبك، وأنا لا أستطيع أن أنسى كلماتك، أن أنسى ذلك القلب الذي أسكنني في عمقه، أحس بحمرة الشمس في عينيك وهي تغرب خلف دمعة ترفض أن تشرق من خلف أكوام من الشجن العميق، أحس بتلك الأمطار، أحس بها شديدة وغزيرة لكنها تأبى أن تتساقط...

أحسست بغروب السعادة من عمري، نعم أحسست بغروب حزين وقاتل وأنا أودع كل الذكريات الجميلة، أحسست بذاك الغروب الذي يبكي بلا دموع ويتكرر دوما في كل القصص الرائعة التي تنتهي كما تنتهي الأشياء في عمق البحر، فلا تترك خلفها سوى أحلام تنكسر كما الأمواج تنكسر على الصخر.

أمضيت ساعات وأنا أتأمل في الماضي قبل أن أودعه الوداع الأخير، لأنصرف الآن عنه، فبكيت وأنا أتذكر صورته قبل أن يرحل عني، تذكرت ملاحمه التي أوشكت أن تغرق في عمق ذكريات حزينة، لست أدري كيف أستطيع أن أمضي في الحياة بعد أن فقدت الإنسان الذي كان كل حياتي، فما هي الآن الحياة، هكذا سأمضي بلا حب بلا إحساس .

ركبت الطائرة وأنا أشرق بذكريات ماطرة، أنظر إلى العالم من الأعلى، أنظر إليه وكأنني أحس أن الماضي أصبح مثل الأشياء التي تتلاشى من حوالي، أصبح بعيدا مثل الوطن بعيدا جدا .

فلم يبقى بيدي غير أن أختم ذلك الغروب بدمعة وأنا أودع فيه كل الأشياء الجميلة، فتغرب الشمس خلف أديم أزرق وهادئ دون أن تتحدث بتلك الذكريات التي تغرب من حولها، أو تتحدث بشيء، لكنها في عمق ذلك الغروب تترجم كل القصص الشجية والمؤلمة في عمق البحر ».

فما إن وصل إلى تلك العبارة، حتى سمع صوتها الرقيق، الضعيف وهو ينادي نداء خفيفا خافتا لم يستطيع أن يفهم معناه، فقام من مكانه وانصرف عنها غير مبالي بشيء من آلامها لأن تلك الكلمات كانت تسري كسم قاتل في دمائه كلما تذكرها، كم كان يتمنى لو أنه لم يقرأ تلك الرسالة وتلك المذكرات، لو أنه لم يتزوجها، لكن كانت هناك أمور جديدة هناك طفل قادم إلى وجود.

كان الجو باردا وغائما، كانت الريح تنشد زمهرير حزين، بدأت قطرات المطر في التساقط، ليصبح الجو مشحونا وشجيا، لكن محمد لم يبالي بتلك القطرات المتناثرة فوق وجهه، فقد كان جل تفكيره مرتكزا في نتيجة التحاليل وفي فاطمة، إن حديث طبيب بدا وكأنه سيفصل قلبه عن قلبها، بدا كالصاعقة، كيف سيعود إليها ليقطع أخر شريان يربطها بالحياة، ويقتل في قلبها كل إحساس به شوق أو حنين إلى الطفل، انه سيغلق في وجهها

كل أبواب، كل النوافذ إنه ذاهب لقتل إنسانة لا يدري إن كان يشفق عليها أم أنها أصبحت رغم كل شيء أقرب إنسانة إلى قلبه.

أمضى محمد ساعات وهو يمشي في الطريق، ثم ركب الباص إلى قرية REWS حيث يقطن فؤاد، فوجد نفسه في بيته بين كؤوس الشاي الدافئة وهو يحكي إليه القصة بكاملها.

يجب عليك التزام بنصائح الطبيب وكتمان أمر مرضها، أعتقد أن حقيقة كهذه في الظروف التي تمر بها قد تقضى على حياتها.

لقد فكرت طويلا، فكرت لساعات كيف سأخبرها؟

أظن أن لكل مشكلة حل وحلك عندي يا محمد، الأمر في غاية البساطة، أخبرها أن الطفل مصاب بمرض من الأمراض الوراثية النادرة التي تستدعي الإجهاض، تأكد أنها مهما كان تمسكها بالجنين في الأخير ستختار التخلي عنه.

نعم إنها فكرة خطيرة غابت عن دهني.

الآن دعنا من هذا الأمر، وتعالى نشرب الشاي ونسترجع معا شيئا من الذكريات، لقد اشتقنا إلى مثل هذه الجلسة.

نعم، لكن فكري شارد، لا أكابدك الحديث، أشعر أن الأمر ليس بالسهولة التي تعتقد.

سوف نكون معها جميعا لا تخاف على زوجتك إنها فرد من عائلتنا.

لكنني أرى في عينيها إصرارا غريبا لم أعهده منها، إصرار على احتفاظ بالطفل رغم كل الظروف .

ظل محمد يتجادل أطراف الحديث مع فؤاد حتى السادسة، فخرجا معا وقد أصر فؤاد على أن يوصله إلى طراكونة فركب محمد السيارة وهو يقول

- لقد انشغلت بموضوع زوجتي ونسيت موضوعك

- أه يا محمد لم أكمل أوراق الأرض بعد، القوانين الاسبانية متشددة مع المهاجرون، لكنني استمتعت كثيرا لم أكن اعرف أن الطريق بين برشلونة وطركونة بداك الجمال استغرقت فيه حولي مائة كيلومتر فالربيع يغطي المكان والحدائق يانعة انه مكان رائع للاصطياف والتنزه خصوصا من جهة البحر على مقرب من طركونة حيث البحر جميل وهادئ بجانبه الخروع ومحاصيل الدرة والقطن ، أتعلم يا صديقي انه لأول مرة اكتشف هدا الطريق.

- نعم طركونة مدينة جميلة ورائعة بشوارعها الطويلة الفسيحة إن اشد ما يعجبني في شوارعها شارع رملة القائد الأعظم الذي تظلله الأشجار اليانعة على منحدر صخري يمتد حتى البحر، هدا الشارع الذي قضيته فيه أجمل أيامي مع روزا قبل أن تضع حدا لحياتها هناك عرفت أول حب الذي حفر في قلبي ندبا مؤلما احتجت لوقت طويل كي أمحو تصدعاته من خرائط حياتي ، لقد كنت ازور هدا المكان كثيرا وكأنني أتأسف على داك الماضي الراحل .

- أسف يا صديقي لأنني فتحت الصفحات المطوية من حياتك.

فنظر إليه فادا هو شارد يغوص في حزن عميق ثم صمت قليلا وقال:

- لا بأس ، سمعت أن طركونة رغم ثوبها الأوربي مازلت بها أحياء ضيقة يسكنها الغجر كما انه مازلت بها منازل تحمل الأثر الأندلسي، أه يا عصر مضى حيث كنا فيها أسياد هده المدينة لقد كان لنا شأن في هده البلاد، انظر إلى الحال الآن كيف تغير، فأبناء الأسبان الصغار أصبحوا الآن يضيقن المغاربة شتى أنوع الذل والمهانة.

-نعم، لقد كانت لنا حضارة عظيمة، لكن لم يبقى منها غير بعض المساجد والقصور وحمامات و... آما ما تبقى فقد شملته سياسة الهدم والإفناء الشامل، الأندلس مليئة بالعبر التاريخية المؤلمة

- لكن اسبانيا الآن مدينة أروبية محضة، على رغم من أن المغاربة يتزيدون فيها بكثرة، لقد أحست اسبانيا بزحف المغاربة إنها تخاف من اليوم الذي يصبح فيه الأسبان الأقلية المطلقة خصوصا أنهم غارقون في اللهو وسياسة الإباحة الجنسية ولا يهتمون لأمر الأسرة والإنجاب كثيرا عكس المغاربة

- أه، نعم قالها ثم شرد بفكره بعيدا وكأنه تذكر شيئا لا يريد آن يفصح به لأحد فلم يستيقظ من شروده إلا على صوت إحدى الحافلات ليتابع الطريق وهو يغوص في صمت عميق لم يشأ محمد آن يوقظه من هواجسه بعدما أحس بعدم رغبته في الكلام. فشغل نفسه بالنظر إلى أشجار الزيتون حتى أخذه النوم فلم يستفيق إلا والسيارة قد توقفت قرب البيت، فأصر على استضافة فؤاد لكنه رفض بشدة ليعاود أدرجه الى سلفادورا، في حين صعد محمد الدرج مسرعا للاطمئنان على فاطمة التي كانت تغوص في نوم عميق، كانت الساعة تشير إلى التاسعة، لم يعهد منها الإبكار في النوم، فجلس فوق الأريكة ينظر إليها بعينين حزينتين ويفكر في عمق الحزن الذي سببه لها، فتحركت من مكانها وكأنها أحست به، فابتسمت في وجهه وقالت:

- أحضرت يا محمد، انتظرتك طويلا لأعرف نتائج التحاليل.

- نامي الآن يا فاطمة، قالها وهو يعبث بشعرها الأسود الطويل بلطف وكأنها طفلة صغيرة بين يديه.

- لا أستطيع، أنا لا أعرف كيف أخد ت سنة من النوم لأغرق في نوم عميق، لم أكف على التفكير بك وبالتحاليل، إن تلك التحاليل غريبة شيء ما، كل ذلك من أجل الاطمئنان علي وعلى الجنين، إنني أرى مبالغة في الأمر أم أن هناك خطب ما.

ثم نظرت إليه وهي تقول:

- ماذا تخفي عني يا محمد ؟

- أنت بصحة جيدة لكن(نطق بها وقد تلعثم لسانه)

فنظرت إليه فاطمة نظرة قلق وانتظار وهي تقول:

- لكن ماذا؟

- الحقيقة أننا لا نستطيع الاحتفاظ بالجنين، الجنين به مرض وراثي ناتج عن خلل في اختلاط صبغي، الأطباء في هذه الحالة ينصحون بإجهاض الطفل.
- ماذا تقول أنا لا أصدق ذلك، كيف يستطيع الطبيب أن يعرف تلك الحقيقة والجنين لم يكمل شهرا في بطني، قل انك لا تريد الولد قل ذلك، أنني لا أصدقك لا أصدق طبيبك، قالت تلك الكلمات ثم سقطت تبكي بغزارة، فحاول محمد الإمساك بها وتجفيف دموعها، فأفلتت منه وصدته في عنف وهي تصرخ أتركني، لا أريد أن أراك، لا أريد أن أرى أحد، فعرف محمد أنها عادت إلى جنونها وأنه مهما فعل لن يخمد حدة غضبها والصواب في تلك الحال أن يتركها لوحدها لتستوعب الحقيقة فتركها وخرج .

في صباح اليوم التالي، قام محمد من نومه وقد خطر بباله خيال فاطمة، فاتجه إلى غرفتها ليطمئن عليها فلم يجدها، فانتابه القلق فاتصل بها لتخبره أنها تبحث عن عمل وأنها ستعود بعد ساعات، فارتدى محمد ملابسه وركب سيارته متجها إلى العمل وبعد يومين فوجئ بالتغير الذي أصاب فاطمة، فقد كان يخاف أن تكتشف أمر الكذبة وتصر على الاحتفاظ بالجنين خصوصا بعد خروجها المتكرر والغريب، فإذا هي الآن تصر على إجهاض الجنين وفي أقرب وقت، كأنها تمقت وجوده، فاحتار محمد في أمرها طويلا، احتار في نظراتها الغريبة التي لم يعد يفهمها، احتار في ذلك التغير الرهيب الذي أصابها، لكنه لم يكن يملك سوى أن يكون بجانبها في تلك الظروف ويكون سندها خصوصا أنه يعلم تفاصيل مرضها، تفاصيل ماضيها، ويعلم جيدا أن صدمة صغيرة قد تنهي حياتها، وهو لا يحتمل رحيلها، لا يحتمل أن يكون سببا في قتل إنسانة أخرى بغض النظر على من تكون، فاستحضر أمامه صورة حبيبته الأولى وهي ترمي بنفسها من أعلى الجسر بعد أن رفض الزواج بها وهو تلميذ وهي تحمل في بطنها ابنه، كيف أصرت على أن ترحل من حياته في صمت تاركة تلك الرسالة الغريبة التي تتأسف فيها على حبه الكاذب، وتتهم المغاربة بكل الاتهامات، وتكره نفسها لأنها تعلقت بفتى مغربي لا يقدر مسؤولية علاقته بها .

فتذكر جنونها ورحيلها في صمت، إنها تشبه إلى حد كبير زوجته حتى في نبرات صوتها الرقيق، انه لا يدري إن كان تعلقه بفاطمة نابع من تعلقها بتلك الفتاة الإسبانية ذات الأصل الفرنسي، أم أن هناك سبب آخر لا يفطنه .

مرت الأيام والشهور، وانتهت أيام الشتاء لينشر الربيع أوراقه ويفرش زهوره فوق الأرضية الخضراء، فتنتشر الشمس أشعتها فوق النباتات والأراضي محتضنة في عمقها كل أشكال الحياة، كانت قرية سلفادورا تبدو كالزريبة المغزولة بخيوط الحرير، كروضة خضراء في أجمل فصولها وكان الجو يبعث على المرح، والشروق، والابتسامة، والنسيم يترنم بالحياة وكأنها السماء تبتسم له، بل تبتسم لكل اسبانيا، لكل المدن والقرى فتشرق على أناملها كل شموس السعادة، وفي خضم هذا الجو ربيعي المخضر كانت تجلس فاطمة في شرفة المنزل تنظر إلى الفراغ حائرة الفؤاد شجية النظرات، وقد أغلقت عليها غرفتها رافضة أي اتصال بالآخرين، فقد فقدت أخر أمل يربطها بالحياة، فقدت القلب و الإحساس فقدت الأمومة، فقدت كل المشاعر الجميلة لم تكن تعلم أن إجهاض الطفل سيكون سببا في عقم تام يقضى على آخر شعاع في حياتها، لقد انطفأت في عمقها كل الشموع ولم يعد هناك نور ولا ابتسامة.

حاول محمد اخراجها من أحاسيس الحزن والضياع لكن دون جدوى، كانت تقابل كل شيء بالرفض وتلومه ولا تكف عن اتهامه وهي تعتبره السبب الأول في كل ما حل بها، وأنه بسببه فقدت كل شيء فأصبحت فاضية الوفاض حتى من الأمل.

ومع مرور الأيام بدأت فاطمة في تقبل حياتها الجديدة، خصوصا بعدما قرر محمد وأصدقاؤه إقامة سهراتهم الأسبوعية بالبيت، وبينما محمد وأصدقاؤه مستغرقون في اللعب، جلست فاطمة على مقرب منهم وهي تراقبهم في اهتمام دون أن تفهم شيء من قواعد اللعبة.

نظر فؤاد إلى فاطمة مبتسما وقال :
- الشطرنج لعبة فكرية رائعة ومذهلة، وهي لعبة اللوحة، اقتربي يا فاطمة، وانضمي إلينا فنحن عائلة الشطرنج، انضمي إلينا وتأكدي انك ستنتقلين من مرحلة التفكير العادي إلى التفكير الراقي والذكي، ستحسين وأنت تلعبين بكثير من السعادة خصوصا عندما تظفرين بالفوز، انظري إلى اللوحة أو الرقعة إنها مقسمة إلى 64 مربعا (8 مربعاتx8 مربعات) من لونين، ما رأيك أن نتوالى نحن تعليمك لعبة من أشهر اللعب في العالم؟

ابتسمت فاطمة وقد أخذها الفضول وقالت ساخرة:
- ماذا لو كنت الخاسرة الوحيدة في اللعبة، أظن أنني لم أعد أتقبل فكرة الخسارة، قالتها وقد غطت ملامحها سحابة من الحزن فقطاعها محمد قائلا:
- سنجعلك ملكة اللعبة، ثم نظر إلى أصدقائه وقال: إن زوجتي قصاصة رائعة، كنت أقرأ لها كثير من القصص خلسة ونحن في باريس قصص من القصص التي جلبتها معها من المغرب، بل كنت أقرأ حتى الكتابات التي كتبتها ونحن سلفادورا لا أنكر عليكم شدة إعجابي بأسلوبها، أنا اعترف لها بدقة الوصف وغزارة الأفكار، فما رأيكم أن نعلمها اللعبة بقوانينها مقابل أن تحكي لنا قصة من قصصها الرائعة بأسلوبها الراقي الجميل .

ابتسم فؤاد وهو يقول حكايات من المغرب، نعم نشتاق إلى سماع قصصه وحكاياته، إننا نشتاق إليه، نشتاق إلى هوائه إلى كل شيء فيه.
فوضعت يداها في يد محمد وقالت :
- موافقة
دخلت فاطمة إلى لعبة الشطرنج، وأصبحت تجد متعة خاصة فيها مع أنها كانت في أغلب الأحيان الخاسرة الوحيدة، لكنها بدأت تتقن قوانين اللعبة، كانت كثيرا ما تلعب وهي تحكي قصصا وحكايات، تارة عن الأطلس، وتارة عن مراكش، وغالبا ما كانت تحكي عن عروس الشمال حيث كان مسقط رأسها وروض طفولتها، فكانت تحكي أحداث واقعية دون أن يفطن

أحد إلى ذلك، فصوتها العذب الرقيق وإحساسها المرهف الحزين جعل الجميع، يصغي إليها بتطلع، يصغي إلى تلك الوقائع التي ترويها مع كلمات مختارة تتحرك بين قطع الشطرنج.

وفي يوم من الأيام وهي مستغرقة في اللعب، أمسكت الملكة وحركتها بخطوة واحدة بشكل قطري، حركت الجنود وبدأت تحكي بعينين يختزنان شيء من الحزن وشيء من الدموع.

»عندما أحبت أمل الفتاة البسيطة صارت ملكة، كانت يحيط بها الجنود، كانت تعتقد أن الملكة تستطيع التحكم في اللعبة، كانت سعيدة بالحياة بالحب، فتركت الألم وكل شيء وحلقت في حلم لذيذ ومشرق ولم يكن في اللوحة إمكانية تبديل المواقع، أعتقد أن الحياة حينها كانت تشبه لعبة الشطرنج في القرن الخامس عشر، الفيلة بإمكانها التحرك خطوتين فقط في شكل قطري، الملكة خطوة واحدة، صمتت ثم حركت الملكة والجنود و أتممت قائلة ليست هناك إمكانية لتبديل المواقع بين الملكة والقلعة، قالتها وهي تنظر إلى محمد في شيء من السخرية اللعبة في النهاية معقدة، لسنا في القرن الخامس عشر على كل حال.

كانت أمل بنفسجه صغيرة في عنفوان الطفولة، أحبت الحياة والطبيعة، كانت أسعد طفلة في الوجود تعيش برفقة جدتها العجوز، لا وجود للألم في حياتها، لا وجود للحزن أو دمع أو قيود، كل ما تعرفه ابتسامة ولعبة، لم تكن تعرف معنى الحياة الموت الألم ...، استيقظت يوما من نومها فلم تجد جدتها ووجدت البيت ممتلئ بالضيوف في عيونهم حمرة البكاء، رفعت رأسها فوجدت والدتها بجانبها وهي تقول :
- لقد نمت نوما عميق بنيتي، لا بأس سترافقين بنات خالك هذا اليوم نحن سنظل هنا لبرهة وسنلحق بك ثم ناولتها قطعة شكولاتة.

لم يكن فكرها حينها يتسع لشيء، لكن مع الأيام فهمت أن جدتها رحلت ولن تعود.....

استقرت أمل في بيت والدتها في قمة الفقر والحاجة لدرجة أنها تعجز في ساعات المرض عن ثمن الدواء، لكنها عندما كبرت اكتشفت أن والدها قد توفي وهي طفلة رضيعة، وأن الشخص الذي كانت تعتقد أنه والدها في حقيقة الأمر هو زوج والداتها وأنه كان يبخل عليها بكل شيء.

كبرت أمل الطفلة الصغيرة، تفوقت في الدراسة رغم كل المشاكل والظروف الصعبة المتخبطة فيها، درست بجد، سهرت، تعبت كانت الصحافة حلم حياتها والأمل الذي يحملها عاليا فوق كل المعانات، وفي نهاية سنة الباكلوريا وبينما تستعد لامتحانات، أحست بشيء من المرض لكنها لم تبالي به واستمرت في سهرها، استفقت صباح اليوم التالي من أيام الامتحانات أحست بحرارة شديدة تمتص جسمها والآلام في كل مفاصلها، أردت الوقوف فلم تقدر نادت على أختها الصغرى بصوت خافت ورقيق وهي تقول:
أنا لا أستطيع الوقوف تعالى وساعديني، كانت تقولها وهي تبكي وتردد بصوت خافت :
- إنني لا أستطيع المشي، أصبحت عاجزة...

فلم تعد أمل تقدر على الوقوف ولم تستطيع الذهاب إلى الثانوية و لا إلى الطبيب، استطاع شقيقها تأمين بعد النقود من صديق له وبعد مدة تابعت العلاج لكن الطبيب أخبرها بضرورة استئصال اللوزتين لخطرهم على بقية أعضاء الجسم، فلم تمضي الأ أيام قلائل حتى أجرت العملية لتخرج منها إنسانة أخرى وقد تغيرت في عمقها أشياء كثيرة، خصوصا بعد معاملة زوج والداتها القاسي وتخليه عنها في أصعب الظروف، لم تكن فكرة إعادة السنة تناسبها وجدت نفسها وبدون مقدمات تترك الدراسة لتبحث عن عمل وأي عمل ...

تعرفت على عبد الله في محطة القطار، نشأت بينهما صداقة لم تلبث أن تنقلب إلى إحساس آخر، لم تعرف كيف تعلقت به، لم يكن هناك عدد للزمن لكل اللاعب كما في قوانين اللعبة لكن كانت هناك بداية.

- اعتقد أن الحب كالفوز في لعبة الشطرنج، قالتها وهي تنظر إلى محمد أعقبتها فترة قصيرة من صمت ثم أتمت :

- أشرقت الحياة، النجوم، أضاءت الدنيا أصبح في حياة أمل شيء من الأمل، بل الكثير منه وكثيرا من السعادة، حركت إحدى قطع الشطرنج وقالت: الخسارة في اللعبة والخسارة في الحياة الاثنان يأتيان بلا موعد بلا رسالة .

استفاقت أمل فجأة بعدما انتهت اللعبة فلم تجد لا قلعة ولا ملكة و لا حتى جنود، فقد رحل رفيق مهجتها إلى ايطاليا، ودعته وداعا حارا ومريرا وهي تحس أنها لن تراه، وأن تلك لحظة لن تكرر، فكانت تكتب إليه طويلا وتتصل به كثيرا حتى جاء اليوم الذي ينتهي فيه ذلك الحلم الذي طالما حلمت به، أتي اليوم الذي تقرر فيه زواجها، لم يكن لديها سبب وجيه للرفض، اتصل بها عبد الله لتخبره بذلك الخبر وتودعه الوداع الأخير وهي تحس بأن العالم مظلم من حولها وتحس قلبها ضعيفا، تحس بوخز الألم في شريانه، لم تستطيع أن تقاوم، انهرت نعم انهرت بين الماضي والذكرى واستسلمت للدموع....، تزوجت رغم كل الألم المحيط بها بعدما وجدت نفسها بين ليلة وضحاها شيك لمشروع زواج هي ضحيته، بكت وكم كان الموقف مرير، وبعد أشهر ركبت الطائرة مع زوجها «. وهنا توقفت ونظرت إلى محمد نظرة طويلة وكأنها تسترجع حياتها معه وتقلب في أوراق الماضي ثم قالت كؤوس الشاي، كان علي تحضير كؤوس الشاي أولا ُ، أردت الوقوف فمنعها محمد وقال:

- أنا من سأحضر كؤوس الشاي، فقاومته وهي تقول:
- بل أنا التي سأحضر كؤوس الشاي، أم أنك مازلت تعتقد أنني الملكة.

فقال فؤاد:

- ستذهبين وتتركين الحكاية بلا نهاية؟

فابتسمت في وجهه وهي تقول:

- بل سنعود لنحرك العداد من جديد، لأن أمل خرجت من اللعبة، على رغم من أنها عند ركوبها الطائرة نفضت كل الغبار عن الماضي، فإنها خرجت من اللعبة خرجت منها لأنها كلما عاودت اللعب كانت تكون لها الخسارة حتى خسرت كل شيء، فتقبلت أن تعيش مع فكرة الخسارة طالما هي عاجزة عن الفوز.

استمرت اللعبة، كانت الليلة ليلة السبت، لم يكن هناك عمل في الغد و لا داعي للتفكير في شيء، كانت العيون غارقة في اللعب وأحيانا تنقلب ضحك، وأحيانا حكايات، لم تكن فاطمة بحالة جيدة في ذلك اليوم لكن ذلك لم يلفت انتباه أحد مع أنها أسرفت في الحكايات، كانت تحكي قصص مبكية، ولم تتوقف حتى انتبه الجميع إلى ذلك وانقلبت موازين اللعبة، فسقطت فوق قطع الشطرنج وهي تبكي...

أراد محمد تخفيف من حزنها وكأنه انتبه فجأة إلى عمق الحزن المحيط بها، وانتبه إلى دموعها، أراد الجميع التخفيف عنها، فراحوا يسردون حكايتهم ومشاكلهم حتى تعرف أنها ليست التعيسة الوحيدة في العالم، فتحولت اللعبة من لعبة فكرية للتسلية والضحك إلى مناحة وتساقطت دموع شطرنج فوق رقعة اللعب، فبكت الملكة وانهار الجنود فالحكايات مؤلمة ولا أحد يعرف أن خلف هذه الوجوه الضاحكة المرحة كل هذه الآلام.

امسك رشيد بالملكة وهو يحكي
- عندما جئت اسبانيا اول مرة كنت سائحا كنت منبهرا بتاريخ الأندلس وكنت أجد متعة وأنا ابحث في اسبانيا عن تلك الحضارة المتبقية التي شهدت للقرون عظمة دولة إسلامية راقية فزرت كثيرا من ربوع اسبانيا وتجولت في مدنها التي كانت تبدو مدن نصرانية محضة كنت اشعر بالآسف وأتساءل هل هده هي الدولة التي فتحها طارق بن زياد وشهدت حضارة إسلامية زاهية أ هذه هي عاصمة الأنوار التي أضأت عندما كانت دول اروبا تغوص في الظلام ماذا تبقى منها اللهم إلا آثار قليلة تئن تحت وطأة النسيان تساءلت كثيرا عن جامع قرطبة، حمراء غرناطة استغرقت

في البحث طويلا وكنت التقي مع جنسيات كثيرة منها المتفهم ومنها المتعصب وكنت أنداك أدمن السفر والتجول، كنت في حاجة إلى نسيان أشياء كثيرة في طفولتي وأنا أطوف بين المدن وفي يوم من الأيام وانأ أتجول في مدينة بلنسية   بشارع

خوسيه انطونيو وهناك التقيت صارة فتاة مغربية ولدت باسبانيا أمضيت معها أكثر من ثلاث اشهر

ثم تزوجتها بعد الزواج توفي والدي وسوأت أحوالي المادية فقررت العودة إلى مراكش لكن صارة رفضت العودة، أخبرتها انه علي متابعة أعمال أبي بصفتي ابنه البكر و وجدودي بلنسية لن يزيد حياتي إلا سوء لكنها رفضت وأصرت على الطلاق فأبيت دلك ومع الأيام تفاقمت المشاكل بيننا لدرجة أنني كنت امضي معظم أوقاتي تائها في الحانات حتى جاء اليوم ثارت في وجهي وهي تقول:

- لقد جعلت منك رجلا في حين أنت تطوف الحانات جريا وراء الخمر وفتيات اسبانيا، لكنني الآن لن اطلب منك الطلاق لأنني سئمت من طلبه، سأريك كيف ستطلقني،   ثم أخذت تضرب رأسها بالأرض وتصرخ حتى التف الناس حول المنزل وجاء البوليس الاسباني   فلم أجد بدا من طلاقها و أنا ساخط على تلك القوانين التي تجعل من الرجل إنسان ضعيف بلا شخصية،   عدت إلى مراكش و بعد سنتين علمت من إحدى صديقتها أنها تزوجت فتى جزائري وأنها كانت حامل عندما رحلت، فعدت إلا اسبانيا أبحث عنها دون جدوى فاستقرت بطركونة   وهناك التقيت بها مع ابني وكان عمره خمس سنوات فلم أستطيع التحدث إليها بعدها علمت أنها ألحقت ابني بنسب الجزائري وأنها تعيش الآن معه بفرنسا فقررت أن التجأ إلى القضاء للتأكد من الخريطة الصبغية لكنني لم اعثر لها على اثر ....

تسلم عبد الله زمام اللعبة وهو يحكي :

- »كنت في الرابعة والثلاثين، انه اليأس، شعرت بالاختناق، المرارة، التذمر مجاز بامتياز   ودون عمل، كنت أخجل من دخول البيت كي لا أنظر في عيون والداي الذي كانا يحلمان أن أصبح أستاذ، وكان يعتمدان على

في المساعدة في مصروف البيت الذي يتكون من تسعة أفراد، كل الأحلام تبخرت و الأعوام تمر ولا انفراج في الأفق، فخطرت ببالي الهجرة السرية، فقررت أن أحرق كل الأوراق، وكل الهوية، فعملت بقوارب الصيد للشهور طوالا....، ومع الأيام اقترب الحلم وبدأ ينشر جناحيه فوق رفوف فكري، لأجد نفسي في ليلة قمراء مظلمة مع حولي 29 شخص في وسط قارب سعته لا تفوق نصف العدد، لنصبح فجأة في عرض البحر بين الأمواج والسماء والنجوم تنظر إلينا في إشفاق ونحن نتسلل كاللصوص البرد، الريح، البحر، الكل كان يصرخ بنا دون أن نتوقف وكأن رغبتنا في الوصول إلى الشاطئ قتلت من عمقنا كل الرغبات الأخرى، أمضينا في البحر ساعات وساعات بين الموج والعطش والتعب.

اقتربنا من الشاطئ لم تعد تفصلنا إلا مسافة ساعات لكن سرعان ما بدأت طفلة صغيرة في البكاء و كأنها أصابها خطب ما، لم تستطيع والداتها إيقافها فامتد إليها أحد الركاب القارب خوفا من افتضاح أمرنا خصوصا انه لم يعد يفصلنا عن الشاطئ إلى دقائق، فصرخت والداتها في وجه الرجل، فلح لنا سرب بعيد من البوليس الإسباني لتعم الفوضى والرعب والصراخ وينقلب القارب في عمق البحر وبدأنا نعوم في اتجاه الشاطئ محتضنين ذلك الأمل الضعيف في النجاة.

غرقت الطفلة الصغيرة وحاولت الأم لحاق بها، أمسكتها في خضم ذاك الظلام الموحش وحاولت إخراجها من البحر لكنها كانت تصرخ مصرة على الغرق مع ابنتها، استطعنا الإفلات معا من قبضة البوليس الاسباني.

أحسست بعمق الألم المحيط بها، لم أستطيع التخلي عنها واستطعت الدخول إلى أعماقها والوصول إلى السر الدفين الذي دفعها هي وابنتها للخوض غمار الموت، أحببتها وتزوجتها رغم كل الظروف وأمضيت معها ثلاث سنوات لم تستطيع فيهم أن تنسى طفلتها، كانت تذهب إلى الشاطئ وتسترجع ذكرياتها المريرة التي انتهت بفقدانها، أخبرتني أنها أم لطفلين وأن ظروفها الصعبة وحدة الفقر جعلتها تجري عملية جراحية لحد النسل

بصفة نهائية، لم تمضي على تلك العملية أكثر من سنة حتى فقدت زوجها وطفلها في حادثة السير، فقاست الأمرين في فراقهما وأصبحت حياتها صعبة فعملت خادمة في البيوت، بائعة خبز لتحمل طفلتها ذات يوم بعدما قررت خوض غمار البحر.

حاولت أن أمحي كل الندوب من قلبها، لكن جرحها لم ينتهي، رحلت ذات يوم بدون عودة، بحث عنها طويلا في كل مكان بحث عنها في المتشفيات بين جثث المهاجرين، كنت أمضي ساعات في تصفح الجثث التي يلفظها البحر وكم كان الأمر صعبا ومؤلما لا يمكن تصور عدد الضحايا، شكل الوجوه، أكثر من 130 جثة مهاجر غير شرعي يتم العثور عليها في العام الواحد، معظمهم مات غرقا، أصبحت في سكة البحث عن زوجتي في مأساة أخرى مأساة الموت والحياة على ضفاف البحر « .

صمت عبد الله بعدما غطى وجهه سحابة من الحزن العميق ثم نظر إلى فاطمة وقال:
- إن ماساتك تشبه إلى حد كبير مأساة زوجتي، إنني أشعر بمدى الحزن والألم الذي يعتصر قلبك، لكنه قدرك يا ابنتي و أظن انكي أقوى بكثير من زوجتي، فابتسمت فاطمة وهي تقول بلهجتها الاسبانية البسيطة:
- لا بد للإنسان من لحظات ألم، كنت أظن أنني الوحيدة في العالم من تعاني، لكنني اكتشفت أن خلف كل واحد منا حكاية.

وطالت الليالي وطالت فيها الحكايات لتفرج عن مكامن وأحزان دفنتها الأيام لكنها ما تزال محفورة في عمق كل منهم وكانت تحتاج فقط إلى مثل تلك الليلة المقمرة لتفرج عن أحداثها في تلك الصورة

الأيام و ... والأشهر تمر بسرعة، وفاطمة غارقة بين مذكراتها وأورقها تكتب بحس وقلب حكايات بلهجتها الأمازيغية، فتجدها تكتب كل كلمة كل حرف بقلب مرهف حزين، وقد قررت بينها وبين نفسها أن تخرج كل تلك الحكايات من جديد، أن تحقق الحلم الوردي الذي طالما حلمت به لقد انتبهت فجأة

وهي تقلب قطع الشطرنج بين حكايات اللاعبين انهمرت الدموع، رفعت الستارة....

مرت الأيام مرور البرق وعاد الخريف ليتسلل ويترك طلائعه واضحة على الأغصان، ملك الأشجار هرم الخريف وقد تركها و أغصانها عارية بعدما نفضت كل الأوراق، لتتراقص تحت رياح الشتاء العاتية، فترقص على أصدائها كأنغام حزينة، فتجد الطيور تتوارى في أكنتها وتسقط أعشاش العصافير ويشتد عزف الريح مع الأوراق وأحيانا تعزف عزفا جميلا خافتا على حبات المطر المتساقطة.

جلست فاطمة في مكتبها بقرب النافذة وهي تقلب بين صفحات الأوراق تارة وتارة تشتغل بصوت الريح ومراقبة الأجواء، أو تنصت إلى المذياع وكانت حينها تكتب بلغتها الأمازيغية فصلا جديدا من رواياتها التي أصبحت الآن تنشر بأكبر الجرائد، كانت تكتب وهي تغمرها سعادة ممزوجة بشيء من الشجن وكأنها تتخبط بين إحساسين متناقضين، إحساس بالنجاح والفوز بعدما اقتربت من حلمها و أصبحت تحس بقوة تجعلها تمسك السعادة بيديها، و إحساس بالخوف والرهبة من المستقبل بعدما فقدت كل قواعد السعادة ولم يبقى بيديها غير كلمات تحركها بقلمها وهي تستنزف من جعبته ذكريات ولآلام طالما أقلقت مضجعها

بدأت تكتب وقد أسدل الليل ستاره وتقول في مذكراتها:

» نزح القمر من خلف غيوم قاتمة، بزغ الليل الموحش بظلمته الحالكة، نزح ليرسل أشعته الفضية التي تبدد ظلام الليل الغارق في وحشته لتضيء شيئا من وحشتي، حملت قلمي لأدفن حيرتي وحزني فوق البياض، أنثر و أكتب شيء من الألم الذي يعتصر قلبي، انه خريف عام 2009 خريف شجن يخنقني، لا أستطيع تحمل صوته و لا رؤية أغصانه أحس بريحه وزمهريره يحاكيني، يذكرني دوما بأنني مثل تلك الأشجار بلا أغصان بلا أوراق، وأنا الأنشودة التي ينشدها من أجلي، أتذكر ذلك الكابوس الذي

أقلق مضجعي وسرق النوم من عيوني ليالي طوال فأخذ الابتسامة والسعادة ورحل بدون مقدمات...

أتذكر ذلك الإحساس والألم المرير عندما فتحت عيناي بعدما نجوت من موت محتم، أتذكر ذلك الشعور الفظيع الذي اعتصر جسمي، لم تكن فكرة الإجهاض فكرتي، لكنني كنت أخاف أن أكون سببا في عذاب إنسان أخر سيدخل حياتي لكن ما أصعب ذلك.

نظرت إلى زاوية حياتي، إلى كل الظروف التي مرت بي، بد ت وكأنها عادية بمضاهاة ما كنت أشعر به، نظرت إلى زوجي الذي ظل بجانبي وهو ممسك بيدي، آه كم شعرت بالنفور وأنا أنفض يدي من يديه شعرت أنه مجرم أجرم بحياتي معه، لم أتقبل الأمر، كنت سأموت من صدمة الخبر، بدأت دقات قلبي تتلاشى وبدأ العالم يغرب من حولي ... لم أتقبل فكرة أنني فقدت آخر أمل في الأمومة، شعرت بوخز قاتل في صدري شعرت بعمق الجرم الذي ارتكبته في حق نفسي، لكنه لم يكن بيدي خيار، لم أكن أعرف أن عملية الإجهاض قد تسوقوني إلى عقم مؤكد، لم أستطيع أن أسامح نفسي ولا أن أسامح محمد تجرعت مرارة الألم في صدري وصمت، حاولت مغادرة الحياة في هدوء ففشلت على رغم كل الظروف التي مرت بي، أظل عاجزة عن الموت، حاولت مرارا ولم أ ستطيع كان هناك شيء بداخلي يمنعني انه إيماني القوي بالله سبحانه وتعالى، حاولت الخروج من دوامة الحزن، فلح لي خيال الكتابة من جديد بدأ يدور في غرفتي ويجلس معي في كل مكان، بدأ ينتشلني إلى ذلك الحلم الطفو لي وكأنه يشفق بي، فبدأت أكتب و أكتب و أكتب ...

اليوم أقبل حلمي يصافحني، استطعت بعد مدة أن أكتب في إحدى الجرائد التي تحتضن الكتابات الأمازيغية، أصبح عندي أناس يتطلعون شوقا لكتاباتي، غرقت في الحلم وأنا أكتب وأكتب ....، لكن هناك شيء من الخوف يقلقني، أخاف أن أستفيق من حلمي على كابوس جديد طالما حلمت به، إنني أعرف جيدا أني أتاجر بالآلام الناس، وأخاف أن أفقد كل الناس الذين أحبهم.

- لقد تعرفت اليوم إلى صحافي جديد، لم أستطيع أن أنسى ذلك الحديث الذي دار بيني وبينه إنني أتذكره جيدا وهو يقول:
- أظن أنه أصبح من اللازم أن يعرف الناس من هي حمامة الشاطئ لست أدري لماذا تصرين على بقاء هويتك مجهولة بعد كل هذا النجاح الذي حققته روايتك، انك كاتبة تجريدية بتميز وان رواية دموع الشطرنج لأكبر دليل على ذلك.

ثم نظر إليها نظرة طويلة وهو يقول:
- هناك مشروع لترجمة قصصك لأكثر من لغة، لا شك أن هذه التراجم ستفتح لكي أفاقا أخرى من النجاح.
انتابني قلق وخوف، أحسست أنه أتى اليوم ليعرف العالم من أكون...
لأجلس الآن أكتب و أكتب في مذكراتي بعدما عجزت عن كتابة الفصل الأخير من الحكاية، كان الجميع ينتظر منى النهاية... « .

انتهت فاطمة من الكتابة، فذهبت إلى السرير محاولة اختلاس سنة من النوم تأوي إلى أجفانها، بعدما أيقنت أن لا جدوى من التفكير ولا جدوى من الانتظار.

ظلت تتقلب في السرير ساعة زمن دون أن تحظى بسنة من النوم، فقامت قلقة حائرة ثم خرجت إلى البهو، وحملت كتاب مذكراتها، فانتبه محمد إلى ذلك ونهض من فراشه متجها إليها ليجدها نائمة على الأريكة وقد سقط منها القلم في حين كانت تمسك في يديها اليسرى كتاب ذكرياتها، فسحبه بعناية ثم غطها بغطاء دفيء وهو يقبلها في جبينها لكنه فجأة انتبه إلى تلك الكلمات التي تسبح في مذكراتها وهي تقول فيها:
»يا أيها الأمل الغائب عني، إن في قلبي نزيفا كصبيب الشلال المنحدر وفي عيني دمع كسيل المطر المترقرق، وفي عمقي شمعة توشك أن تخبو وفي صدري نصل حاد وقاتل نصل يمتد إلى أعماق أعماقي ليمزق أوتار قلبي ويقطع في شراينه.

إنني اليوم أقف أمام أطفال صغار، أرقب الحب والأمل في عيونهم فينساب دمعي، أراقب الابتسامة...، كنت في حاجة إلى طفل ليخرج مكامن الأم المدفونة في عمقي، في حاجة إلى ذلك الإحساس، إلى تلك الكلمة، في حاجة إلى سماع ذلك النداء أمي، في حاجة إلى تلك الأنامل الصغيرة وهي تمسك بي وتنظر إلي بعينين برئتين ترفض أن تتركني...

إن الحب الذي كان يوشك أن ينتشلني من حزني قد رحل، رحل بلا عودة أو أمل، رحل وترك قلبي مثل صحراء قاحلة، أجرد من كل المشاعر.

فأحس محمد أن فاطمة على رغم من كل شيء لم تنسى، ولن تنسى، ولا تستطيع أن تنسى، وإنها ستظل عاجزة عن حبه طالما لا تعلم الحقيقة كاملة.

استفاقت فاطمة فجأة بعدما أحست بمحمد، فقامت من نومها وجلست فأمسك بيديها وهو يقول:
البرد شديد في البهو......

فنظرت إليه بعينين متعبتين فيهما من الذكريات ما ينفطر له القلب وكأنها تعيد تلك الأيام والليالي، فوجدت نفسها تبكي بكاء مرا ومؤلما، فاقترب منها محمد وهو يعرف أن كلمات الدنيا وتعازي العالم لا تكفي لتجفيف دمعة من دمعاتها، فمسح دموعها وجلس بجانبها وهو يقول:
- إن الآلام الدنيا بكاملها لا تضاهي دمعة من دمعاتك يا فاطمة، انك أرق وأجمل إنسانة عرفتها بحياتي.
فنظرت إليه بعينين راقرقتين وهي تقول في نفسها "آه يا محمد ماذا لو عرفت أن هذه الإنسانة تاجرت بالآلامها وآلامكم من أجل حلم كانت تعتقد أنه حلم حياتها، الآن تدرك أن هذا الحلم سيقضي على البقية المتبقية من أملها، فقد أعمى الحقد والألم عينيها، فماذا تفعل؟ إنها تحس بروح محمد تتسلل إلى أعماقها، تحس بطيفه يعبر خيالها تحس بذالك الإحساس الذي طالما افتقدته...".

أخذت وهي جالسة في صدر البهو ومحمد بجانبها يمسك بيديها ويقول:
- ألا تحسين بهذا البرد الشديد الذي يعوم المكان.....
- إنني لا أحس بالبرد، ولا شيء من الحرارة، أحس أنني معزولة عن العالم، تعبت من كل هذه الآلام، وتقت لإشراقه تمحي من قلبي كل الأوجاع، نظرت إلى كتاب مذكراتها وانحنت نحوه وتناولته لتتهافت عليها الذكريات من جديد، فأمسك محمد الكتاب وسحبه من يديها وهو يقول:
- نستطيع معا أن ننهي كل هذه الأحزان، نستطيع أن نبدأ من جديد

فنظرت إليه نظرة استغراب وابتسمت ابتسامة خفيفة وهي تقول :
- تستطيع يا محمد أن تخضع العالم، لكن أنا لا، انك تعرف جيدا انك قطعت أجمل شيء كان يربطني بك، إنك تعي جيدا مدى الألم الذي حفرته بعمقي.
- لا يا فاطمة، لا تكوني ظالمة، انظري إلى عيناي، لست كما تظنين لم أطلب منك إجهاض الطفل لأنني لا أريد أي صلة بك، صحيح أن تلك الرسالة ذبحتني و تلك المذكرات قتلت في عمقي أشياء كثيرة، لكنني لم أصل إلى تلك الدرجة.

فنظرت إليه من جديد وهي تحدق فيه طويلا وقالت:
- لم تكن تريد الطفل أعلم ذلك، الطفل كان عاديا، لم يكن به أدنى عيب، لقد قمت بتحاليل أخرى، أخبرني الطبيب أن الطفل سليم والحمد لله، لم أستطيع أن أضيف كلمة واحدة وانصرفت نعم، انصرفت وأنا أفكر في تلك الكذبة الكبيرة، لم أكن أعرف انك تكرهني لهذه الدراجة، لم أكن أظن انك مستعد لقتل روح مهما كانت أسبابك، لم أستطيع إبقاء الطفل لأنني أيضا كرهتك، كرهت أي ارتباط يربطني بك، لم أكن أريد أن يعيش الطفل نفس مأساتي، لا أريد أن يعيش اليتم والحرمان في وجود والديه، فكرت طويلا لأقدم في الأخير على أكبر جرم ممكن أن ترتكبه المرأة، لقد أجهضت طفلي في شهوره الأولى، فأجهضت معه أمالي وأحلامي، لا يمكنك تصور عمق الآلام التي أحسست بها، كانت الآلام قاتلة في جسدي ونفسي، اعترف أنني

ارتكبت أكبر جرم في حق نفسي، إنني مجرمة يا محمد، مجرمة، إن العقم أكثر عقاب استحقه لأنني رفضت أن احتفظ بأجمل شيء في حياتي...

سقطت فاطمة تبكي، ولم يعد محمد يستطيع إيقافها وقد أصيب بالذهول، لم يكن يعرف أن فاطمة عندما أجهضت الطفل كانت تعلم تلك الحقيقة، الآن استطاع أن يفهم سر ذلك التغير والقسوة....، لكنه لا يستطيع إخبارها بالسبب الحقيقي وفي مثل هذه الظروف، انه يقدر على احتمال أي شيء، احتمال نظرات اللوم والاتهام، لكنه لا يحتمل فقدانها، فظل ينظر إليها ويهدئ من روعها دون أن ينبش ببنت شفة، لأنه يعرف جيدا أنه لا شيء سيخمدها، فتركها تخرج تلك الشحنات المتكتلة في قلبها لعلها تستريح منها.

استطعت فاطمة أن تكتب آخر فصلا من فصول مجموعتها، وما هي إلا شهور حتى شاع صيتها، وترجمت رواياتها لأكثر من لغة، وأصبح الكل يتطلع الى حمامة الشاطئ على أنها موهبة خارقة، استطاعت بقلمها أن تحتضن كل الحكايات، وترويها في قالب مذهل وذكي بأسلوب أما زيغي مذهل، وما هي إلا أيام قلائل حتى سقط القناع واستطاع الجميع أن يعرف الكاتبة التي تختفي خلف ذلك اللقب، وتلقطتها وسائل الإعلام بعدما تهافت مخرجي الأفلام على رواياتها، وكثرت عليها عروض الصحافة، فمن كان يخطر بباله أن حمامة الشاطئ التي أغرت العقول بكتابتها هي فاطمة، كان النجاح مذهل والصدمة أيضا مذهلة.

وقفت فاطمة بالقرب من النافذة وهي تحدق في الفراغ، وقد أخذت الشمس ترسل أشعتها في أرجاء الغرفة الصغيرة وعلى الأوراق المبعثرة هنا وهناك، وهي تفكر في تلك الكلمات التي قالها فؤاد لمحمد :

- ما كنت أظن أن زوجتك بهذه الجراءة، من سمح لها أن تتخذ من قصصنا سلما تصعد بها الى قمم النجاح، ثم نظر إليها وهو يقول:

- لقد خيبتي ظننا فيك يا فاطمة'كيف لنا أن نجتمع بعد اليوم....؟

ثم تذكرت محمد و باقي الأصدقاء وكيف أصبحوا ينظرون إليها، لقد فقدت كل شيء حتى الجيران أصبحوا ينظرون إليها باستغراب وحذر وأصبحوا يخشون الإسراف في الحديث معها خوفا من أن تتسرب قصصهم الى الجرائد، تذكرت الماضي الذي مر أمام عينيها مرور البرق، فأحست أنها عاجزة عن البكاء، عاجزة عن الصراخ .

كان محمد يجلس في الغرفة المجاورة وقد حضر حقيبة السفر، انتبهت فاطمة إلى ذلك التغير الذي أصابه، فاتجهت نحوه مستفسرة فقال لها محمد :
- لا أظن أن بقائي هنا سيغير شيء من الحقيقة ولا حتى رحيلي ولكن أحيانا في البعد رحمة، أتمنى أن تكوني وجدتي السعادة التي كنت تحلمين بها .
- لكن يا محمد..

فقاطعها وهو يقول:
- انك لن تقدرين على كبح مشاعر الحقد في قلبك، لم تستطيعي أن تحبي حتى نفسك، ثم سحبها من يديها الى المرآة وهو يقول:
- انظري إلى نفسك في المرآة، أنظري فربما تبصرين ولو شيء من حقيقة نفسك، أنا فعلا أعجب لتلك الكلمات التي تكتبينها، لا أظنها تنبع من قلبك، لا أصدق أن فاطمة التي تعجز عن الحب تستطيع أن تتحدث عنه و تحسه مع معانات الناس، لا أظن يا فاطمة، أتمنى أن أكونا كاذبا، لكن هذه هي الحقيقة التي احتجت لوقت طويل كي أفهمها.

فنظرت إليه دون أن تنبش ببنت شفة وقد تسمرت في مكانها بلا حراك وهي تردد بداخلها " صدقت يا محمد إنا عاجزة عن الحب، عاجزة... " ثم أحست بثقل في صدرها وبوخز حاد في قلبها، كأن العالم يغرب من حولها، كأن الماضي والحاضر والذكريات تتهافت على فكرها لتفقد فجأة الإحساس بكل شيء مستسلمة الى ذلك الغروب الذي أغشى عيناها فلم تستفيق إلا وهي في المستشفى.

تعودت فاطمة أن تجد محمد بجانبها عند أي أزمة تعترض حياتها، لكنها أفاقت على صوت الممرضة دون أن تجد أحد، ففتحت عينيها ونظرت الى العالم من جديد لتتأكد من أنها ما تزال على قيد الحياة، فدخل الطبيب ليطمئن على حالتها، فسألته عن محمد، فأخبرها بأنه ذهب ليلحق بميعاد الطائرة، كتمت فاطمة حزنها وقالت للطبيب:
- أستطيع مغادرة المستشفى أ ليس كذلك؟
- نعم لكن يجب عليك أولا إجراء مجموعة من الفحوصات، انك تعلمين أنكي مصابة بالقلب، يجب أن تنتبهي لصحتك أكثر وتبتعدي عن الإجهاد النفسي والعصبي، سأكتب لكي بعد الأدوية .

فنظرت إليه مستغربة، القلب، أنا لست مصابة بالقلب، أظن أن هناك خطأ ما.

كان الدكتور إريكي طبيب جديد تحت التمرين، لم يكن يعلم بتفاصيل مرض فاطمة، فخرج برفقة الممرضة ليستفسر عن جهل المريضة بمرضها، لتخبره الحقيقة كاملة في الوقت الذي قامت فيه فاطمة من سريرها محاولة الذهاب الى الحمام، فسمعت الحديث الذي دار بينها وبين الطبيب وتأكدت لها تلك الحقيقة فلم تستطيع التحمل، فسقطت مغشيا عليها.

غابت فاطمة عن الوعي لساعات وساعات ولم تستفيق إلا عند منتصف الليل، فوجدت نفسها في غرفة الإنعاش، أسرعت الممرضة إلى الطبيب لتخبره أن المريضة فتحت عينيها، وما هي إلا لحظات حتى حضر الطبيب ليطلع على الحالة.

فاطمئن الطبيب على المريضة التي خرجت من غرفة الإنعاش ولم تعد في حاجة الى العناية المركزة، وقد علمت الحقيقة كاملة، لتحس بمدى الجرم الذي ارتكبته في حق الآخرين، لقد علمت لماذا أصر محمد على إجهاض الجنين، وكيف أخفى هو وأصدقاؤه عنها تلك الحقيقة خوفا عليها وكيف

استطاعوا   أن يحملوها بعيدا بعيدا عن العالم، وجعلوا شغلهم الشاغل إخراجها من دموعها في حين قابلت المعروف بالنكران وتاجرت بالا لامهم دون أدنى اعتبار للمشاعر الإنسانية.

ثم بدأت تسترجع ذكرياتها مع محمد الذي أحبها لدرجة الجنون، وكيف قابلت ذلك الحب الطاهر بالتجاهل، تذكرت يداه الحنونتين فأجهشت بالبكاء، لم تستطيع أن تتحمل تلك الحقيقة، لقد كانت تحظى بعائلة وزوج، كانت تحظى بالكثير من الحب والحنان لكن الحقد أعمى قلبها وحولها إلى إنسانة بلا قلب بلا مشاعر، فنظرت إلى الفراغ وهي تقول آه يا محمد...

وفي تلك لحظة دخلت الممرضة مع الطبيب ليطمئنا على حالتها فقال لها الطبيب:
أنت اليوم بصحة جيدة، يجب أن تنظرين إلى الحياة بقلب متفائل وتبتعدين عن الحزن والتوتر، فالسعادة والأمل والإحساس بالحياة يقتلان حدة المرض.

نظرت فاطمة وهي تحاول الابتسام ألم يتصل محمد؟.

فأجبتها الممرضة:
- لقد أحضرك إلى المستشفى وهو قلق وذهب ليلحق بالطائرة بعد أن أطمئن عليك، مع أنه كاد يتأخر على الميعاد وعندما وصل الى باريس اتصل بنا ليطمئن على صحتك من جديد، لكنه لا يعلم ما حدث ليلة البارحة .
- لا تقلقي، أظن أن لديه خطب ما، ربما يتصل لا حقا لكنك الآن بصحة جيدة .

فنظرت فاطمة إلى الطبيب وهي تقول:
- لا أظن بعد اليوم أن هناك ما يقلقني أو يخشي علي منه، إن شاء الله سأكون أحسن بكثير من أي وقت مضى، لقد سمعت حديث الطبيب الجديد مع الممرضة، كيف أخفيت علي حقيقة مرضي كل هذه المدة، كيف تركتني

في اتهام وشك في الآخرين، الأعمار بيد الله ومثل هذه الحقيقة لن تقتلني، ولو كان يعلم محمد من تكون فاطمة لا تغيرت أشياء كثيرة .

إنها رغبة محمد، أظن أن حالتك حينها لم تكن تسمح بالمغامرة بخبر كهذا، نحن نفكر في صحة المريض ونفسيته ومن حقنا أن نختار الظرفية المناسبة للخبر، لقد كدت البارحة أن تموتي، الحمد لله على سلامتك.
فنظرت إليه في صمت وهي تفكر في نفسها وفي محمد وتقول، نعم ما حدث قد حدث ولا مجال لتغير الحقيقة، لكن محمد أين هو الآن، لم يعد يخاف علي، ربما الآن لا يحتمل حتى مجرد التفكير بي، آه يا فاطمة لقد فقدت كل شيء.

عادت فاطمة إلى المنزل مشرقة الوجه، بعدما قررت أن تنسى كل تلك الآلام التي مرت بها، وتترك الماضي وتعيش حياة جديدة، قررت أن تنسى كل شيء ولا تؤنب نفسها على ما مضى من حياتها، لأنها لن تغيرها، فراعها أن محمد لم يعد وأنه رحل بلا رجعة، فحاولت جاهدة أن تستعيده، فاتصلت به مرارا دون جدوى، فلم تجد بدا من أن تكتب إليه، فكتبت إليه طويلا بعدما أخذت العنوان من مقر عمله، فلم تتلقى جواب حتى ذاب اليأس في قلبها، وأظلم العالم من حولها، حاولت الاتصال برفقائه لتقصي ولو البعض من أخباره، لكن محاولتها بآت بالفشل، فعكفت في البيت طويلا تتقلب بين مشاعر الندم وتلوم نفسها تارة وتارة تعزيها، حتى اصفر لونها، وتراجعت حالتها الصحية، لكنها لم تتوقف ولم تنتبه الى ذلك، فعكفت ليالي طوال تكتب في مذكراتها الفصل الأخير من الحكاية لعل محمد يقرأها يوما، ويعلم الحقيقة كاملة، ويعلم أنها لم يتزوج بإنسانة بلا قلب كما كان يظن، لكنه الماضي والحقد عندما يمتلكان الإنسان، فكتبت إليه كلمات يعتصر لها الدمع لتختمها أخيرا بدمعة سقطت من عينيها، كأنها آخر دمعة تسقط من دموع الشطرنج.

قامت ذات صباح وفتحت النافذة ونظرت الى الشارع كأنها تودعه، نظرت إليه نظرة طويلة، ثم ارتدت ملابسها وقد عجزت عن مقاومة رغبتها في

الذهاب إلى البحر، لكنها قبل ذلك حاولت الاتصال بمحمد وكأنها تريد سماع صوته لآخر مرة، فاتصلت به مرارا وتكرارا دون جدوى، فتذكرت قوله آخر مرة:

» أظنك لم تعدي بالحاجة إلي تقدرين أن تعيشي حياتك الآن، أتعلمين أنك أقوى مما كنت أتصور، لقد تصورتك ضعيفة رقيقة، لم أكن أعرف تلك القوة الرهيبة المكتومة بداخلك، لم أكن أعلم قدرتك الهائلة على تدمير الآخرين، الآن أستطيع أن أودعك وأنا مطمئن عليك، لطالما تمنيت أن تكوني قوية، طوبا لك يا فاطمة، اعترف لك بالذكاء والقوة، فطوبا لكي..."

فبكت هي تتذكر تلك الكلمات، فتركت له رسالة غريبة تقول فيها وكأنها تنوي على شيء ما:

"أرجو أن تسامحني مهما فعلت، أرجو أن يسامحني الجميع، إنني سامحتك ولو انك لم تجيب على رسائلي إنني أعذر غضبك، وأفهمك لأنني مررت من كل تلك الظروف، تركت لك مذكراتي، تركت لك كل شيء يخصني، دموعي، حيرتي، ابتسامتي، ....، كل ما تريد أن تعرفه هنا بهذا الكتاب، ستجد الماضي والحاضر و كل شيء كنت تسأل عنه، إنني أحسك بعيدا جدا، الآن أدرك قيمة الخسارة في الحياة.

اليوم مشرق وجميل، أسمع صوت البحر وهو يناديني، أشم رائحته أردت سماع صوتك، أحس أنني لن أسمعك، لن أراك، أحس بالأشياء تنطفئ من حولي، لا أفهم كيف احتملت البعد عني كل هذه الفترة لكنني لن أسامح نفسي مهما حييت، لأنها ضيعت منى أعز الناس، زوجي، أصدقائي، .....

أشتاق إلى رحيل ينتشلني من هذا العالم، يحملني بعيدا فيحلق بي ويعبر بي الأفق الزرقاء، فأتخلص من ثقل الجسد لتسبح الروح بعيدا عن كل المآسي والدموع، إن نبضات قلبي تختنق رويدا رويدا، لكنه صوت البحر يناديني إنني ذاهبة للقاء البحر، سأمشي حافية فوق الرمال كما كنت دائما، سأنظر إلى الموج، إلى السماء، إلى الطيور وأقترب من الموج حتى يمتد الماء الى أعلى قدمي لأحلق فوقه بعيدا مثل حمامة الشاطئ، أو ألست

أنا حمامة الشاطئ، لطالما حملت بأجنحة تجعلني أحلق فوق البحر وأرسو بعيدا .
إنني أرى العالم جميل جدا، أراك قريبا جدا بجانبي، نعم أراك بجانبي، لا أعرف لماذا هذا التعب والألم الذي يعتصر قلبي مع أنني في قمة الراحة والسرور، هنا اكتب لك لأنني سأرحل مثلما الطيور ترحل عن أعشاشها، الوداع يا محمد، الوداع

هذه أنا حمامة الشاطئ أو فاطمة كما تعرفها.

خرجت فاطمة وهي تحمل حقيبتها وقد أضمرت في نفسها أمر العودة إلى عروس الشمال، إلى مسقط رأسها بعد أن قطعت تذكرة الطيارة فوصلت إلى مطار مدريد قبل الموعد بثلاث ساعات، تذكرت صديقة لها تقطن على مقرب من المطار، فذهبت لتودعها ودعا حارا ثم مر بها طيف محمد فتجاهلته، فجلست إلى صديقتها التي انتبهت إلى اصفرارها وشحوبها وحاولت أن تمنعها من السفر لكن دون جدوى.

لم يبقى على موعد الطائرة إلا ساعتين، تذكرت فاطمة جواز السفر لا تعرف أين تركته، تركت حقيبتها وأغراضها وخرجت تبحث عنه، كأنها تتذكر أنه سقط منها في الشاطئ، فاتجهت إليه من جديد، إلى ذاك الشاطئ الذي طالما قذف الآلاف الدموع و الآلاف الضحايا، طالما كان مسرح رواياتها الحزينة، كأنها تودعه لمرة الثانية، تودع فيه ذكرياتها، تودع فيه كل القصص والدموع، فظلت تمشي فيه لدقائق طويلة متناسية ذلك الحزن الذي تحسه، فلم تجد جواز السفر وأيقنت بضياعه مثل كل الأشياء الجميلة التي ضيعتها من حياتها، أيقنت بضياع كل شيء، لم تعد قادرة على العودة، تملكها الحزن واليأس، واشتد بها الإرهاق والتعب، فأحست بدوار يغشى عليها وكأنها سحابة عابرة فلم تلتفت إليه، انصرفت مودعة البحر، لكنها لم تستطيع بعد ذلك الغروب الذي أغشي عينيها وجعلها لا تشعر بشيء من حولها وكأنها انفصلت عن العالم...

كان محمد في ايطاليا عندما اتصلت به سارة و أخبرته أن فاطمة تركت حقائبها ولم تعد، وأنها تتصل بها لساعتين دون جدوى، و تخاف عليها من خطب ما، خصوصا أنها لم تكن بحالة جيدة، فأحس محمد وكأن قلبه يقفز من مكانه وانتابه القلق والحيرة، لكنه لم يستطيع أن يسافر ذلك اليوم، ولم يسافر حتى اليوم التالي...

اتصل محمد بشقيق فاطمة، فأخبره أنها لم تصل الى طنجة فاحتار في أمرها، بحث عنها طويلا دون جدوى، انتهى اليوم بكامله بعد أن غربت الشمس في مضجعها، فاكتشفوا أن فاطمة لم تسافر في الموعد ولم تعد الى البيت، بدأت دوامة البحث عن فاطمة، استمرت لأيام وأيام دون أن يعثر لها على أثر، فذاب اليأس في قلوب الجميع خصوصا سارة التي رأتها لآخر مرة وودعتها ودعا حار كأنها تحس أنها لن تراها...

مرت الأيام والشهور طويلة حزينة، جلس محمد يقرأ في مذكرات فاطمة وقد كتب على غلافها آخر دموع الشطرنج، ليعرف تلك الحقيقة التي غابت عنه، أحس محمد أنه فقد فاطمة فبكى وهو يقرأ كلماتها وهي تقول:
- أتمنى أن تسامحني، لقد سامحتك يا محمد، أضنك تعرف لماذا، إن الله قد جعلك سببا لتطهر قلبي من كل مشاعر الحقد والانتقام، لو رحلت عن العالم فعلم أنني رحلت بقلب ملأه الحب، ليتك تعرف الآن من أكون، إنسانة أخرى قد لا تعرفها، إنني ولدت منذ ذلك اليوم الذي نجوت فيه من موت مؤكد عندما أفقت وأنا بغرفة الإنعاش، توقعت أن أجدك قريبا كما كنت دائما، لكنني لم أجدك، لم أجد أحد من الرفقاء وجدت نفسي وحيدة، انتاباني شعور غريب ومرير، خفت أن أرحل عن العالم وأنا وحيدة، لا أحد يغمض عيناي، أسرني ذلك الشعور لكنني قررت أن أحلق مثل الحمامة فوق دموع الشطرنج التي طالما سكبتها فوق طاولة اللعب، فكتبت إليك طويلا، كتبت كثيرا، اتصلت بك مرارا وتكرارا، لست ألومك لأنك لم تجيب، ربما لأنني لا أحتمل فكرة أنك نزعتني من قلبك، وربما لأنني أبرر لنفسي لسبب لا أعلمه، لقد تعلمت أن ألتمس للناس أعذارا في تصرفاتهم إننا في

أغلب الأحيان لا نعلم الحقيقة كاملة، تركت لك يا محمد هنا طفولتي، الماضي الحاضر، فربما لن نلتقي وربما نلتقي ونقرأ هذه الكلمات معا....

اعتكف محمد على قراءة مذكرة فاطمة، وقد أحس أنه فقد إنسانة رقيقة انه رغم كل شيء لم يكن يعرف فاطمة، لكنه أحس بشيء من الألم وتأنيب الضمير .

أحس أنه كان سببا في ما حدث لها، لقد أحس باليأس القاتل الذي يذب في نفسها في أخر أسطر كتبتها، تلك السعادة التي تتحدث عنها في رسالتها ليست إلا سحابة عارضة من أعراض الشجن المنغمس في عمقها، كانت كلمة منه قادرة على أن تبعث الأمل والسرور في قلبها، لكنه ترك باريس ورحل الى ايطاليا وهو يطوف المدن لينسى الماضي، لينسى كل شيء يتعلق بفاطمة ، كأنها حفرت جرحا جديدا على جروح قديمة لم تضمحل، لم يستطيع أن يقرا تلك الرسائل التي تتحدث عنها، لكنه لم يكن يجيب على اتصالاتها خوفا من أن يتملكه ذاك الشعور الذي يأسر عقله وقلبه، لم يعلم أن فاطمة سترحل بلا عودة ...، انه يحسها قريبة بعيدة لا يحتمل فكرة موتها ويصر في عمقه على أمل ولو كان كاذبا .

لم يعد محمد يستطيع نسيان فاطمة، كان يتذكرها في كل زاوية من أركان البيت، يتذكر خيالها، طيفها، ابتسامتها، دموعها كان يلح له خيالها وهو يلعب الشطرنج، فينظر إليها وهي تسرد قصصها فتنهمر الدموع بين الملكة والجنود ... فكان يلح له طيفها قريبا ويمتلكه الحنين إليها، فيجلس إلى مذكراتها وقصصها، يقلب في صفحاتهم وقد عجز عن طيهم ، لكنه شيء كان ينبع من عمقه ويحدثه أنها ما تزال في اسبانيا، أنها بمكان ما في طراكونة، أنها قريبة جدا ....، لكن خبر وفاتها تأكد، أصبحت فاطمة الإنسانة وفاطمة الكاتبة في نظر العالم ميتة، لتسقط آخر دمعة من دمعات الشطرنج وتطوى الصفحات .

وان كان هناك من يصر أن حمامة الشاطئ لم ترحل عن العالم، وأنها تختفي في مكان ما لتخرج لقرائها برائعة جديدة من روائعها، فصارت فاطمة أسطورة الناس، أسطورة الشاطئ أسطورة المرأة حين تفقد كل شيء، أسطورة الحمامة التي سكبت دموعها فوق قطع شطرنج، وحلقت فوقها بعيدا عن الناس، عن العالم، كأنها عجزت عن احتمال كل تلك الآلام، كل تلك الدموع التي تناثرت وتساقطت فوق طاولة اللعب.